ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدّعها أحد ، فلا يعلم ما فى السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم فى المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله ﷺ للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا فى القضايا العامة الشاملة التى لا تتغير ، وهى العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتى الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذى سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٧٠) ﴾ [الحج] أعلم كل شيء كائن فى الوجود ظاهره وباطنه ، فأنا أحْكُم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ .. (٧٠) ﴾ [الحج] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا[1] : الكتاب يعنى به اللوح المحفوظ الذى يحوى كل شيء .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى حاتم وابن مردويه . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٧٤) .

وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) ﴾ [عبس]

حتى القرآن نفسه فى ذلك الكتاب : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد] ويقول تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فضرورة الكتاب ليدلك وليدلّ الملائكة المطّلعين على أن الأشياء التى تحدث مستقبلاً كتبها الله أزلاً ، فمجيئها فى المستقبل على وَفْق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذى كتب الشىء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشىء موافقاً لما كتب أكبر دليل على علْمه وإحاطته .

إذن : مجىء الكتاب لا ليساعدنا على شىء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] ها هو تاريخك ، وها هى قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعْلك والحجة عليك .

وعلْم الله تعالى فى قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٧٠) ﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد فى وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآنى ، أنْ يعطى الشىء ونقيضه ، كيف ؟ هَبْ أن عندك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر فى غَيْبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق

ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾

كأن العبادة ـ وهي : طاعة أمر واجتناب نهي ـ يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه ؛ لأن الأمر من المساوي لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبي أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا وكذا .

إذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى مني ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ عليَّ ولا ضرر ؛ لأنني ما انصعت لمساوٍ إنما انصعت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ في أن نتبع حكمه .

لذلك في حكم أهل الريف يقولون : (اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس في الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : يعبدون غيره تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا .. (٧١) ﴾ [الحج] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فعْلَه ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجَة .

لذلك ؛ في جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : علم الاجتهاد الذى يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذى يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء] يعنى : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولى العلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) ﴾ [الحج] لم يقُلْ سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصر ؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] أي : الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] والسَّطْو : الفَتْك والبطش ؛ لأن العمل الوجداني الذي يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبىء بشيء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركي هو الفتك والبطش .

(قُلْ) في الرد عليهم : ماذا يُغضبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢) ﴾ [الحج] يعنى : مالى أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيِّناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الغيظ الذى تظنونه شراً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢) ﴾ [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبى بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿ وَعَدَهَا .. (٧٢) ﴾ [الحج] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾ [الانشقاق] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾ [الحج] أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قُلْنا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملة معروفة متداولة .

والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق في الذهن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول : هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : الأمثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء

مجهول ، وكلمة (مثل) استقلَّتْ بأن يكون المثل بديعاً فى النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة فى كلمات معدودة .

فلو وجدتَ مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد فى المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرماء تملأ الكنائن) يعنى : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعدَّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثلٌ يُضْرَب للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْط العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

ويقولون فيمَنْ يُقصِّر فى الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزبُد) والمخضُ عملية خَضِّ اللبن فى القِرْبة لفَصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قَوْل موجز بليغ قيل فى مناسبته ، ثم استعمله الناس لخفَّته وجماله وبلاغته فى المواقف المشابهة ، والمثل يظل على حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصِّه مع المفردُ والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلتَ رسولاً يقضى لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءكِ يا عصام) هكذا بالكسر فى خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المَثل قيل أول

ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعث مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفي عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءك يا عصام) يعني : ما الخبر ؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطب به المذكر .

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه في بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم في علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج] فلم يقُل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا في حاجة إليه ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج] يعني : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا في حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

أى : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : تضافرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدَّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى فى التحدى فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام